

اصوات الليل

قصة جديدة بقلم مبرا ابراهيم مبرا

نريد شعراً خشناً آكلًا يستفز سامعه بل يفرضه .
فقال عبد القادر ، والغليون بين فكبيه : « اخشى ان ليس
في ذلك إلا وقفة المتظاهر . وذلك يعني ان مثل ذلك الشعر
كاذب . »

فقال عدنان : « كاذب ، كاذب ! أليست فيه خلاصة لمئات
الاختبارات الانسانية ؟ قد تكون انت صاحب هذه الاختبارات
أو غيرك . هل لذلك اهمية ؟ »

قال عبد القادر : « أقصد انه كاذب لانه ليس صحيحاً بالنسبة
الى الحياة . »

– « وما الصحيح بالنسبة الى الحياة ، ارجوك ؟ الحكمة
المملة التي تملأ الكتب القديمة ؟ واقعية الروايات المعاصرة ؟
قيل : أعذب الشعر أكذبه . وكان الافضل لو قيل : أصح
الشعر أكذبه . فقد مرت القرون الطويلة على شعرائنا وهم
يبتدعون اكاذيبهم من أجل « العذوبة » ، اما انا فأؤثر ابتداعها
من أجل الحقيقة . وما الرموز إن لم تكن اكاذيب كبيرة
تبتدع لخدمة الحقيقة ؟ وبما ان حقيقة الحياة هي المرارة والقدارة
والحيانة والشر – وهل كان لأحد من شعرائنا « العذبيين »
الجرأة للاعتراف بذلك ؟ – لن تكون إلا المرارة غاية
« الكذب – الحقيقة » في الشعر . اني ادع الورود وندي
الفجر لك . »

فاشدت شفتا عبد القادر وبدت فيها القسوة : « ومن
يريدها ؟ ان ما اريده هو الفن للشعب وعن الشعب . اريد من
الشعر ان يكون صوت المجتمع ، لا شطحات افراد معتمدين .
على الشاعر ان يخلق على امراض امته ويجد لها العلاج . »

وقال كريم : « يجب ان يسترشد بمبدأ سياسي ، فيستطيع
حينئذ ان يكون مرشداً للشعب . »

فتأفف عدنان قائلاً : « اعرف نظرياتك كلها . »

واضاف حسين : « التراث المعهودة . »

فقلت : « اني اميل الى الاتفاق مع عدنان فقد كان للانسانية

« إن تعظمك النساء ... » بدأ عدنان ، ثم تنحج ليجلو
حنجرته وأرسل نظرة لها معناها في الحلقة الصغيرة من الشباب
الجالسين حوله . وقد اضاء وجهه وتوترت عيناه واتسعتا .
فأدركوا في الحال انه يعني ان يتلو آخر ما نظم من الشعر .
كان « الكازينو » المطل على دجلة يكاد يفتق بمن فيه ويبسح
باللفظ والضحيج . والاستكانات ترنّ ، والنرد يقططق ،
وقطع الدمينو تقع على الموائد في طرقات متعاقبة ، والراديو
يعلو بجثيرة فوق الجميع .

ولكن حلقة عدنان سكنت لتصرف عن آذانها ما استطاعت
كل صوت سوى صوته ، وقد علا كصيحة فوق هدير البحر ،
ويناها باصابعها الممتدة تعلو وتهبط بايقاع :
« إن تعظمك النساء ... »

ولا اذكر ابيات قصيدته بالنص ، ولكن لن انسى
فحوها . وهو ان النساء يعظمنك رمزاً لشهواتهن ، لكي
يصلبنك يوماً على نخلة وفمك فاغر لغبار الهاجرة . فيسكن
الحجر على قدميك ، ثم يأكل عينيك ويندبن شفتيك لان ليس
من يقبلها ، ثم يرقصن حول اوصالك وهن يقطعنك عضواً
عضواً ، ويسكنن الحجر من جديد ، ثم يفرغن مثنائتهن ، فينمو
الشوك حثلاً حول بقاياك .

فهتف حسين : « عظيم ! أعد ، بالله أعد ! »

وبصوت اشد اهتزازاً من قبل – وكان صوت عدنان
احدى خدعه المسرحية ، فهو يقول : ما نفع تلاوة الشعر إن لم
تكن درامية أو اشبه بصوت الوحي ؟ – اعاد عدنان
تلاوة قصيدته .

فهز عبد القادر رأسه ، وهو شاب طويل الشعر ضامر
الوجه ، له نظرياته في كل امر من امور الحياة ، من الشعر الى
الثورة ، وقال : « ولكنها ملأى بالمرارة . »

فأجاب حسين : « اما انا فأقول ليس فيها مرارة كافية .
تذكر ان عصر الورود والفجر الندي قد راح وولّى . انا

منذ اقدم العصور انبياء ومعلمون دينيون وقادة سياسيون ،
لينصحوها بما تفعل وما تتجنب والى اين تذهب ، ومع ذلك
فان الانسانية ما زالت في حالة محزنة . ولست اعتقد ان
الشعراء سيوفقون في ذلك اكثر من غيرهم . فلنسمح لهم اذن
بخلق المتعة لنا ، إذا لم يستطيعوا خلق اي شيء آخر . فلعل
البشر عن طريق المتعة يبلغون من نعمة الله ما لم يبلغوه
من قبل .

فأضاف عدنان : « المتعة بالمرارة » .

فقال عبدالقادر : « اريد فهماً ، لا متعة . فاذا جاء الفهم عن
طريق المرارة صفحنا عن المرارة نفسها . ولكن يجب ان نوضع
المرارة في خدمة مجتمعتنا : يجب ان نستهدف الخلق عن طريق
الهدم . والمشكلة هي كيف نفعل ذلك . »

كان لعبدالقادر عينان كبيرتان عميقتا المحجرين ، يظلل
اسفلها هلالان من الزرقاة . وخدها العظيمان وفكاه المربعتان
توحي بشكل جمجمة حية . وكل شيء عنده « مشكلة » يجب
معالجتها لغرض معين وبدون رحمة . وكلما فاه بعبارة ، التمع
في عينيه يريق يضطرب له جليسه . وراح يقول : « ان مشكلتنا
هي كيف نستخدم الفنون في قضية الفقراء وأشباه الجاهلين .
لم يقض على أدبنا الا هذه الفردية المفرطة العميقة في ادبائنا الذين
يتكبرون عن الجماهير . »

فأجاب عدنان : « أما انا فأعتقد بنقيض ما تقول . لا اظن
ان في ادبائنا فردية كافية . انهم على الاغلب عموميون ، مرتحون
مأثون ، وهذا بالضبط ما يريده جمهور ليس له من القراءة
والكتابة الا التزور اليسير . بل ان اكثرهم يحاول ان يعلم
ويرشد ، ولكن تعليمه من اسخف ضروب التعليم . وهم لا
يتكبرون عن الجماهير : كل ما في الامر هو انهم يعتقدون ان
الارتفاع بالشعب لا يجيء ، في هذا العصر الوثاب ، الا عن
طريق احياء الفكر القديم . ولهذا تراهم يلغون ما بكل هو رث وبال .
ولا يكتبون بالعلماء الذين من وظيفتهم ان يخترقوا طبقات
القديم . بل يخثوننا جميعاً على الاقتداء بهم . فهم يخثون بين
الهوية التاريخية والفكر الابداعي . وهذا هو السبب في انك
لا تستطيع هضمهم . وكلنا لا نستطيع هضمهم ، وهام شيئاً
فشيئاً يغلفهم السكون والحمد لله ، فذلك خير لهم . اما الادب
الوحيد الذي يستطيع البقاء ، فهو ذلك الذي تخلقه اذهان
حظيت بسهم-وافر من الفردية . »

فقال عبد القادر في شيء من الخلق : « ليس الأديب من
هؤلاء الا بهلواناً بين جمهور من الكسحاء . اننا لا نزيدهم . اننا
نزيد اناساً يعرفون كيف يستفيدون من اعضائهم ، ليعلموا
الآخرين كيف يستفيدون منها . والمشكلة بالطبع ليست مجرد
مشكلة ادبية . »

فردد كريم كالصدي : « لا ، انها ليست مشكلة أدبية
صرفاً . انها سياسية . »

فقال حسين : « التراث المهوودة ! فكلمنا ذهبت الى
الماخور بقصيدة الى سميحة ، وجب علي ان اذهب اليها برسالة
سياسية . ها ؟ انني افضل ان اذهب اليها ، كما افعل دائماً ، ومعني
قصيدة عنها . ولكنني لا أمسها مطلقاً ، لأنني اعتقد ان السيلان
والعمدة الحاوية لا يتفقان كثيراً . كل ما هناك هو انني انفعل
بالجمال والشفقة ، ويلذ لي ان أرى لعنة الشر تنهش رونق الحياة .
لا اكثر ولا اقل . »

فقال كريم : « انك المخطاطي يا حسين ! »

– انا المخطاطي؟ طبعاً ، طبعاً . ألسنت اقيم في بيت كالتصير؟
اوليس عندي طاهيان وثلاثة خُدم وسائق سيارة ؟ سيارتي
« الكادلاك » من موديل السنة القادمة ، ولي اربع خليلات .
طبعاً انا المخطاطي !
فضحكنا جميعاً . حتى عبد القادر ابتسم ، مسكاً بغليونه
بين اسنانه .

وقال عدنان : « انك تستحق استكناً آخر من الشاي على
هذه النكتة . بوي ! »

فقفز نحونا الخادم ، وهو غلام مشدود الجسم ، اشعث الصدر
يكشف قميصه الرث عن صدره ، وفي زاوية فمه عقب سيجارة .
« استكناً آخر من الشاي ، وليكن من احسن ما عندك ! »
« حاضر عيني ! » قال الخادم واختمني في حشد الجالسين
واذا عدنان يهمس اليّ : « رأيتك مرة اخرى . مالك
تكرر النظر الى ساعتك ؟ »

قلت : « انت تعلم انني مدعو للعشاء في بيت سلمى الزبيدي
هذا المساء . »

قال : « ما زال هناك متسع من الوقت . انها ليست
الثامنة بعد . وفي وسعك ان تمشي الى بيتها في عشر دقائق . »
قلت : « أعرف ، أعرف . »

كان قد اتضى شهر منذ ان قابلت السيدة سلمى الزبيدي

لأول مرة ، يوم طلبت اليّ ان « ائنف » ابنة اختها سلاف الصفوي ، باعطاها درسين في الاسبوع . وقد تركت سامي دعوة خطية للعشاء مع سلاف لتعطيني اياها . ولما سألت تلميذتي أذاهبة هي ايضاً للعشاء عند خالتها ، ضحكت ، أجل ضحكت كأن سؤالي يبعث على الضحك ، وقالت : « انني اسمع عن حفلات العشاء واقراء عنها ، ولكن ذلك لا يعني انني اشترك فيها . »
— لماذا ؟

— لاسباب ظاهرة .

— أ... في الواقع لم تحسري شيئاً .

— من يحسر شيئاً لم يحصل عليه قط ؟ ولكن أصبح ان في هذه الحفلات يتكلم المدعوون بالتلميح وان ... دسائس الحب تنتعش ؟

— ذلك امر مبالغ فيه جداً .

— لا ادري ، ولكن ليتك تحضر احدي حفلاتنا النسوية—

أحد « قبولاتنا » . ان المرء ليظن من حديث النساء حينئذ انه ليس في الدنيا شيء سوى الحب .

فسرني ان اراها تستطرد ، ولو قليلاً ، عن النحو الانكليزي الذي كنت ادرسها اياه ، عبر انني لم اكن مستعداً للبحث معها عما اذا كان في الدنيا شيء سوى الحب . فصرفت الموضوع بضحكة مني لم تستجب لها سلاف ، وعدنا الى الدرس .

أما الآن ، فالظاهر من حديث جلسائي ان هناك أشياء اخرى تشغل على الاقل بال الشباب . فالمسألة الخطيرة عند عبد القادر (وهو يدخن غليوناً لأنه ، كما يقول ، ارخص من السجائر) هي مسألة الفن للشعب بعد القضاء المتوقع على « غير المرغوب فيهم » سياسياً في البلاد . ولكن كثيراً ما كنت يستمني في مثل تلك الحلقات ان أراهم يشورون ويتشاجرون لآراء اولية . وكنت في شيء من ارهاق الارادة اضع نفسي مكانهم لأذوق نشوة اكتشاف آراء كتلك لأول مرة ، فقد كانوا كمن ينظر الى دجلة ثم يهتف فجأة : « انظر ! انه يتحرك ! وفيه سمك يعوم ! »

راح عبد القادر يستفيض في الحديث عن الكتابة ، قائلاً ان القصة يجب ان تستقى جميعها من حياة المعدمين والمتسولين والمجرمين ، لكي تكشف عما سماه بالتفسخ والنث في وسطنا . واذا الجميع فجأة يصرخون فرحاً عند مرآي توفيق وهو مار بالمقهى ، ويدعونه الى الجلوس معنا . لم اكن قد رأيت توفيق

من قبل ، وهو دون الثلاثين بقليل ، طويل نحيل ، ذو عينين ضيقتين حادثين اشبهت في انها زرقاوان ، وكان لابساً عقلاً وعباءة بدوية ، وحالماً عرفت به ، فتح اطرافها وكشف عن حزام للرصاص يلبسه تحت العباءة (كأنه قد وصل توأم من معركة) وقال : « هذا فخري وعاري ! »

فقلت : « بل انه في غاية الروعة . »

فقال فخوراً : « انه في غاية الروعة ، ولكنني كلما لقيت

اخاً من فلسطين ادركت انه من العار ان البسه هنا ، لا في

جبهة القتال في فلسطين . »

فأثر كلامه فينا جميعاً ، وقد ادرك هو ذلك ، ثم جلس وحينئذ من جديد ، وطلبنا له شيئاً .

ويبدو ان كريم ، وهو الظل الهزيل لعبد القادر ، كان

يعلم ما الذي يستفز ضيفنا ، اذ قال : « كنا نتحدث عن

الادب والشعب . »

فضحك توفيق قائلاً : « يسعدني ان أراكم ، كلما عدت من

مضارب العشيّة ، ما زلت تتكلمون . ليس هناك مثلنا في

الكلام . »

— كنا نتكلم عن الكتاب والشعراء . ويعتقد عبد القادر

ان قصصنا يجب ..

— أعرف ، اعرف ، ولكن هناك شيئاً واحداً لن تتعلموه .

وهو ان القصة والرسم والموسيقى ، الى آخر ما هناك من

خزعبلات حياتكم الخائفة ، ليست الا من اختلاق المدنية . »

ولم أفهم مرماء فسألته في براءة تامة : « اتظن اذن ان

علينا ان نشجعها ام لا نشجعها ؟ »

فاجاب توفيق : « لا حاجة بكم الى تشجيعها ، لان المدنية

ستفعل ذلك مها حصل . ولكنك تعلم ان المدنية تعني التقهر ؟ »

— آ ؟

— انها تعني المرض ، الفساد . والفن نتيجة هذا الفساد ، انه

الغاز السام الذي ينفثه هذا المستنقع الفسيح الذي ندعوه المدنية .

فأشار عدنان اليّ بعينه كمن يقول : دعه يتكلم .

فسألته : « إذن ، تعتقد ان لا حاجة إلى فن ؟ »

فأجاب : « يتوقف ذلك على ما اذا كنت تريد المحافظة

على مدنيتكم . وكل فنان بالطبع ، وكل كاتب قصة ، وكل

روائي ، يطعن بمنجبره المسموم جسم الحياة الصحيح ، لانه

يخدم قضية « المدنية » . وما المدنية ؟ انها ، كما يدل اشتقاق

الكلمة ، حياة المدن ، والمدن تعيش على حساب الصحراء

والريف وما الذي تحصل عليه في النهاية ؟ هذا ... » واتي
 بايحاء واسعة بيده يعني بها الجمهور الكبير في المقهى . « قاعدين
 على مؤخراتهم ، يلفون طيلة النهار ، يتلملون وبسامون ،
 يصيبهم الامساك ، ثم تصيبهم العنة - والعنة متفشية فيهم حتى
 غدت اكثر ساء المدن اما مساحقات او متهتكات ...
 هذه هي المدنية . ثم يأتي الفنانون ويستخرجون من امراضهم
 وخنوعهم احلاماً مزوقة . احلام ؟ لا بل فيء . أتريد حضارتكم ؟
 اليكم بالقيء . هاهاها ! ونظر حوله وصاح : « بوي ! ماء ،
 ماء ! » ثم أتى بشجرة عنية جلا فيها أنفه وحنجرته ، وقذف
 من شفتيه كتلة كبيرة من البلغم على الارض .

فأخذ عبد القادر غليونه من بين فكبيه وقال : « اعدنا الى
 سخافاتك مرة اخرى ؟ الا يكفيك ان الصحراء منذ قرون
 تلتهم مدننا وارضينا الحصبية ، فتريد منا الآن ان نتوقف
 عن مقاومتها ؟ »

فاجاب توفيق : « أنا لا أريد ان تتوقفوا عن مقاومتها . »
 وصب له الغلام من ابريق نحاسي كأساً من الماء شربه توفيق
 جرعة واحدة وأردف : « كل ما قلته هو ان الفن فيء
 المدنية ، لأن المدنية بدورها هي مرض . وكل مرة اعود فيها
 الى المراعي الفسيحة التي ترعاها عين الله ، بين المواشي الثاغية
 والكلاب النابجة ، ازداد يقيناً من ذلك . هل ركبت حصاناً
 في حياتك ؟ »

- ومن يريد حصاناً اذا استطاع ان يركب سيارة ؟
 - سيارة تشتريها من امريكا بعرق ... حين تستطيع
 ان تركب جواداً عربياً اصيلاً ؟ هل ركبت جملاً يوماً ؟ طبعاً
 لا . هل نمت ليلة في خيمة ؟ هل صليت مرة في وسط افق
 رحب كأنه دائرة الفلك حولك ؟ هل قضيت في حياتك ليلة
 حراسة وبين يديك بندقية محشوة ؟ هل عرفت غزوة ؟ هل
 اشتركت في مخاطرة يوماً لتقص عنها ، أو هل اصغيت الى
 قصة مخاطرة - اصغيت اليها ، لا قرأتها ؟ طبعاً لا ؟ وحضر
 شابه فشربه في جرعتين متواليتين . « تلك هي الحياة العربية
 الصحبية ، ولبس بباقي سواها . » ثم القى علي نظرة نافذة
 وقال : « أقلت لي انك استاذ ؟ لعل الاساتذة الذين تلقوا العلم
 في الخارج لا يروق لهم رأي كراي . ولكنك ربما تعلم خيراً
 مني ان العرب ما شاعت ويجهم إلا عندما استقروا في المدن

التي فتحوها ، لقد نخر في عودهم ترف الامم التي قهروها بأسهم .
 ولكن ما الذي كان مصدر قوتهم اول الامر ؟ الصحراء .
 فالصحراء مقلتنا وحصننا ، خزنا وماؤنا . وما الذي سيعيد
 للعرب اذن بأسهم ونشاطهم ؟ الجواب واضح : العودة الى
 الصحراء . العودة الى خشونة الصحراء وسنتها الاخلاقية .
 العودة الى الصراع بين القبيلة والقبيلة لكي نبقى على صحتنا
 ويقتننا . وهناك في الصحراء لن تستخرج القصص من احلام
 افراد مختئين خائبين ، يحسبون الحب اعظم مكتشفات الانسان
 ومع ذلك لا يحصلون من ملذات الحب إلا على جلد عميرة !
 هاها ! المعذرة عن هذا الكلام . فنحن ابناء الصحراء لا نؤمن
 بالف وال دوران ، ونسبي الاشياء باسمائها ، لان لنا معداً
 قوية ، ومتمتنا جسدية ومباشرة . وقصصنا هناك هي اخبار
 اناس حقيقيين وحوادث حدثت بالفعل . ولا يمننا ان نسيجلها
 في الكتب ، لانها تبقى حية على شفاهنا . اعمالنا الفنية الحية هي
 نحن انفسنا ، وكل ما عدانا ميت ولا قيمة له . أتعرف قصة
 البدوي الذي شعر مرة بدافع مجدوه الى صنع تمثال ؟ لقد اراد
 ان يضع تمثالاً لامرأة ميتة كان يحبها ، ولكن لم تكن لديه مواد
 يشتغل بها . غير انه وجد كمية من التمر . فصنع التمثال من
 التمر . وجاع في الصباح التالي ، فأكل التمثال ! وقد اصاب في
 ذلك . فنحن انفسنا ياسيدي تحف الجمال الوحيدة ، والحمد لله
 الفنان الأوحد . »

فانفجر عدنان بقهقهة مدوية ، وقال : « نحن انفسنا تحف
 الجمال الوحيدة ! ما اعظم خداع النفس ! والخلوقات الفاطنة في
 اكواخ « العاصمة » ، تلك الخلوقات القبيحة ، القدرة ، الهزيلة
 جوعاً ، هي تحف من الجمال ولا ريب ! »

فتصدى له توفيق قائلاً : « مدنيتكم هي التي حطت منهم -
 حضارتكم الكريمة . »

قال عدنان : « وسكان الأهوار في الجنوب ، الذين يعيشون
 مغموسين في مستنقعات الأرز حتى يتساقط اللحم عن اقدامهم
 وكواحلهم ، هم تحف من الجمال ايضاً ! »

ولم يمهله عبد القادر للجواب إذ قال : « لو سمعتك اعداؤنا
 لعشقوا كل كلمة ففت بها . »
 « ماذا تعني ؟ »

« اعني ان اليهود يتمنون لو نعتقد نحن بضرورة العودة الى
 الصحراء . »

فاشعلت عينا توفيق غضباً وصاح : « يا ابن ال... لقد رأينا امثالكم في حرب فلسطين . ملائم الدنيا كلاماً وتشدقاً ، ولكن في ساعة الغم تجحرت مفاصلكم لأن الانكليز والاميركان لم يتفقوا معكم . ولولا نحن العشائر ، لكان الانكليز ما زالوا على ظهوركم في هذا البلد حتى الآن . »

فقال كريم : « لم يكن لدينا تنظيم سياسي صحيح ، وما زلنا نفتقر اليه . ولكننا لا ندعو الناس الى العودة الى البراري والغوات لندفن رؤوسنا في الرمال . »

— « ليس في قلوبكم ذرة من الايمان . تلك هي بليتك . كلكم تنضحون كلاماً ، ولكن لا ذرة من الايمان فيكم ولا قطرة . تعالوا عيشوا في خيام الصحراء شهراً واحداً ، اعلمكم كيف يشعر الانسان عندما يعمر قلبه بالايمان ، وكيف يحق لكم حينئذ ان تفتخروا بانفسكم هذه الصغيرة العاجزة . »

لقد كان توفيق كالسلك الكهربائي المعرض ، في لمسه خطر ، وفي مقدوره ان يفوق كلاماً جميع من يعيّرهم هو بكثرة الكلام . وقد لاحظت ان الشباب الآخرين ، قد يخالفونه في الرأي ، ولكنهم معجبون بفصاحته ويستمتعون بقرآن حديثه ولعلمهم كانوا يمازحونه ليستدرجوه الى مثل ذلك الفوران . ولكن الساعة كانت الثامنة والثلاث ، وكان عليّ ان اتركهم لأبلغ بيت سلمى في الثامنة والنصف .

كان الليل قد انتصف عندما انفض المدعوون في بيت سلمى ، فشعرت برغبة في رؤية عدنان والتحدث اليه مرة اخرى ، فعدت وحدي ماشياً ، والهواء البارد يهب عبر النهر بليلاً منعشاً . فلما بلغت « الكازينو » حيث تركت صبحي يتناقشون ، وجدت ان المقهى قد تحول الى مكان فسيح خال ، وقد رصفت كراسيه فوق الموائد ، ازاء احد الجوانب ، واوراق الجرائد المنزقة تزحف مع الهواء عابثة على الارض الملطخة . وكان هناك في الضوء الوحيد الباقي في احد الاركان ، بضعة رجال يتحدثون في هدوء بين اعقاب السجائر ، وحسين جالساً على طرف منهم يقرأ في مجلة .

فسألته : « أين الجماعة ؟ »

فقال : « ذهبوا الى « الليالي الذهبية » مع توفيق لشرب العرق . »

و« الليالي الذهبية » مقصف قريب ، فمشيت نحوه ، واذا عدنان

وتوفيق يخرجان منه ، وهما يضحكان ، وفي مشيتها ترنح وأضح . فصاح عدنان حالما لمحني : « ها ؟ أعدت من بيت سلمى ؟ إيدك بالدهن ! »

فقال توفيق : « لماذا ؟ أصيبة سلمى ؟ »

— في سنن جدتي ، أو على الأقل في سنن الأربعين . ولكن اذا شددت ظهرك بسلمى الزبيدي ، حصلت على ما تريد ! »

فقلت : « يظهر انك سكران . »

— سكران ؟ سلمى الزبيدي ابنة خالة أُمي ، وأنا احبها واكرّمها . ولكنها حشرت نفسها في ذلك الوسط المصطنع الكريه ، لتكون محاطة بالمدعويين ليلاً ونهاراً فلا تتكلم إلا بالانكليزية . لقد قررت ان ازورها غداً واخبرها برأيي فيها . فقال توفيق : « نأخذها معنا إلى الصحراء ، ونحجبها ، ونبقيها في خيمة مع النسوة والماشية . ولتتكلم بالانكليزية عند ذلك الى ان تشبع ! »

— اي صحراء يا توفيق ؟ حتى العرق لا يقتلع الرمال من رأسك ؟

— أليست الرمال اصفى وانظف من كل هذه البيوت المحشوة بمن فيها ، والشوارع البائسة التي قضيت عمرك تشبب بها ؟

— لو تدري ما أتمناه لشوارعنا التي اعشقها ، لو تدري فقط ! إن ما أتمناه هو أن أراها وقد انقلبت رأساً على عقب . وبيوتنا وقد خوت ، ونساءنا وقد ملأن الازقة عربدة ، والدم يجري حتى الركب . لا صحراء ، ولا مدن ، ولا فن للشعب ، ولا سياسة ، ولا مباحي ولا حفلات عشاء . فوضى متضاغية ، وعبد القادر يرفع غليونه من بين اسنانه الصفراء ليغيب من بول الشعب ، وسلمى تصب خمرها الفرنسية لعشر جيف حولها ، وأنا انعب بقصيدتي الاخيرة فوق الحرائب .

كان لصوت عدنان رنين في الطريق الخالي كرنين أجراس ضخمة في واد من الصخر والشوك . يتكلم وهو يدافعنا على الرصيف المشجر ، ويقف بين الخطوة والاخرى ، ويرفع يده وينزلها كأن الفاظه تعلق وتهوي معها .

فقال توفيق : « والله لأركبناك فرساً ، وأحملناك بندقية وأعلمناك معنى الرجولة . »

— خليت الرجولة لك . ولكنك عنيد . يا توفيق . تفضل عزتلك على نساتنا ، ومع ذلك لا تستطيع ان تبقى بعيداً عن المومسات شهراً واحداً . تعال معي اعلمك معنى الضعف ، معنى

الحزن

الحزن قد سهل العيون
الحزن قد عقد الجباه
ليقيم حكماً طغاة

★
يا تعسها من كلمة قد قالها يوماً صديق

مغرى بتزويق الكلام

كنا نسير

كفي لكفيه عناق

والحزن يفتوش الطريق

قال الصديق

يا صاحبي ما نحن الا نفضة رغاء من ربح السموم

أو منية حمقاء، ألسيطان خالقنا ليخرج قدرة الله العظيم

او ان اسمينا

عطارده قد يكون

برجي وبرجك يا صديق

وضحكت فابتسم الصديق

ومشى به خدر رفيق

ورأيت عينيه تألقنا كصباح قديم

في كوخ حراس المنار

ومضى يقول

سنعيش رغم الحزن، نقهره ونضع في الصباح

افراحنا البيضاء... افراح الذين لهم صباح

ورنا الي...

ولم تكن بشراه بما قد يصدقه الحزين

فسحبت كفي من يديه

يا صاحبي

زوت حديثك، كل شيء قد خلا من كل ذوق

اما انا فلقد عرفت نهاية الحدّر العميق

الحزن يفتوش الطريق
صلاح الدين عبدالصبور

يا صاحبي اني حزين
طلع الصباح فما ابتسمت ولم ينر وجهي الصباح
وخرجت من جوف المدينة اطلب الرزق المتاح
وغسنت في ماء القناعة خبز ايامي الكفاف
ورجعت بعد الظهر في جيبي قروش

فشربت شاياً في الطريق

ورتقت نعلي

ولعبت بالنرد الموزع بين كفي الصديق

قل ساعة او ساعتين

قل عشرة او عشرين

وضحكت من اسطورة حمقاء رنمها الصديق

ودموع شحاذ صفيق

واتى المساء

في غرفتي دلف المساء

والحزن يولد في المساء لأنه حزين ضرير

حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم

حزن صموت

والصمت لا يعني الرضاء بان امنية تموت

وبان اياماً تفوت

وبان مرفقتنا وهن

وبان رجماً من عفن

مس الحياة فأصبحت وجميع ما فيها مقيت

★

حزن تمدد في المدينة

كاللص في جوف السكينة

كالأفعوان بلا فحيح

الحزن قد قهر القلاع جميعها وسبى الكنوز

واقام حكماً طغاة

الخوف. فتعرف كيف يقطع اليأس القلب والاحشاء والدماع.
لا، لا اريد تحفك الجمالية، ولا اريد فن عبد القادر وهو يقود
للفقراء والجاهلين. أع... اريد، اريد... السماء مطبقة على
الأرض، والناس مسكين باحشائهم يشنون، والشرطة يصوبون
بنادقهم على رؤوس النساء، وانا وانتم فوق ركام الشوارع
ننعب كالغربان...

وتدشأ مرة، واعتذر، وتدشأ مرة اخرى، ثم اتكأ على
شجرة، وقال: « وحينئذ... وحينئذ ستخلد ذكرانا الملفات

السرية في ال... أع. »
وتراشق القوي من فمه. فأمسكنا به، وقد غدا لين الجسم
عاجزاً عن الوقوف، وقال توفيق: « أما قلت لك لا تكثر
من العرق اذا ما كنت قد تمشيت؟ »
وتقياً عدنان مرة اخرى، وقال توفيق هامساً لي: مسكين
ما معه فلس ليتعشى عشاء مثل الناس.
ثم اجلسناه على الأرض ليستريح.

جامعة هارفرد - الولايات المتحدة
جبرا ابراهيم جبرا